٤ - رسالة المربى

ضرورة التقيد بطريقة معينة — طريقة المشروع — مزايا المشروع

للأستاذ كمال السيد درويش

إن عملية النمو فى التعليم هدف يستحق أن نعمل من أجل الوصول إليه ، ولكن كيف يمكن أن نخرجه إلى حيز التنفيذ. ما أكثر الأسس الفلسفية التى يضعها الكثير من كبار المصلحين والفلاسفة لعلاج المشاكل المعقدة ، حتى إذا جاءوا إلى صخرة التنفيذ تحطمت جهودهم عندها ، وتبخرت آمالهم فيها وعادوا بالحسرة والخسران المبين . ومن أجل ذلك نرى أن نكتفى بتحديد رسالة المربى دون أن نتقيد بحذافير طريقة عملية معينة لتنفيذها . بل إن عمليه التعليم كعملية نمو حر متواصل تدعو هى نفسها إلى عدم التقيد بطريقة عملية معينة . ذلك لأنها طريقة عملية تجريبية . وأساسها الفلسفى يحض على عدم التقيد بأسلوب معين فى التنفيذ ، فما يكون صالحا اليوم قد يصبح غير صالح فى الغد ، والطريقة التى تستعمل فى المدنية ، غير التى تستعمل لتعليم أبناء القرية ، وهم يعطون إشارات المرور وكيفية عبور الشوارع كأول درس يتعلمه الطفل فى أمريكا ، بينما لا نزال نحن حتى الآن نتقيد بمناهج زرع وحصد

التقيد بحذافير طريقة عملية معينة يتنافى مع طبيعة عملية التعلم الصحيحة ، إذ قد تصبح هذه الطريقة بعينها ديكتاتورا يتحكم فى المعلم والمتعلم ، وحجر عثرة فى استمرار عملية النمو . ولذلك يمكن القول أن التقيد بطريقة معينة هو علة فساد الكثير من النظم التعليمية ، فاذا كان ولا بد من طريقة عملية للتعليم ، فلتكن الطريقة التى ترى إلى تحقيق فكرة عدم التقيد نفسها تحقيقا عمليا . وأقرب هذه الطرق إلى تحقيق المعنى الذى حددناه هى طريقة المشروع ، ولذلك سنتناولها بوجه عام

ما هى طريقة المشروع ؟ هى طريقة وضعها وأسسها أحد فلاسفة التربية بأمريكا ، ومن بينها مصر

ومتى يبدأ المشروع ؟ يبدأ كما تبدأ عملية التعلم لدى الأسرة وكما بدأت لدى الإنسان الأول . مشكلة تعترض حياة المتعلم ؛ مشكلة حقيقية قد اعترضته هو فعلا تدفعه إلى محاولة التغلب عليها. يشعر الإنسان إذا اعترضته المشكلة بحاجته الشديدة إلى من يعلمه كيفية التغلب عليها . يسأل أولا ما هذا أو ذاك ، وعند ذلك يبدأ دور المربى ، وهو دور الرفيق الذى يوجهه بما له من خبرة ؛ ويساعد ويعين حتى يتغلب الإنسان على مشكلته ، وينتهى عند ذلك المشروع بنجاح المتعلم فى حل مشكلته ، ولكن المشروع الأول الذى كان غرضا فى حد ذاته سرعان ما يصبح وسيلة إلى غرض جديد هو مشروع آخر حديث ، وسنضرب لذلك مثلا :

« أراد طالب أن يكتب خطابا ردا على خطاب جاء إليه ، ولم يكن هذا الطالب قد سبق أن كتب خطابا قط ، ولذلك لجأ إلى مدرسه يستفتيه . ولو لاحظنا موقف الطالب فى هذه الحال لوجدناه موقف المستيقظ المهتم بكل ما يقوله مدرسه . هذا هو الدرس الحقيق الذى سيتعلمه فعلا فى كيفية كتابة الخطابات . درس ثابت لن ينسى لأنه سيستعمل معلوماته فى الحال فى كتابة الخطاب ، بل وسيتوسع فى استخدام هذه القدرة الجديدة التى اكتسبها فيكتب إلى آخرين ، ويراسل زملاءه فى إنجلترا أو اليابان ، وهلم جرا . .

ولكن هذا المثل السابق فى الحقيقة لا يمثل مشكلة بالمعنى الحقيق للمشكلة ، كما تفهمه طريقة المشروع ، ذلك لأن كتابة خطاب ليست ذات أهمية حيوية قصوى بالنسبة للتلميذ ، وإنما هى صعوبة عارضة ، وإنما تكون المشكلة مشكلة حقا كلما كانت تمس أمرا حيويا بالنسبة للانسان ، فدودة القطن بالنسبة للفلاح المصرى ، بل وللدولة ، كلها مشكلة خطيرة ، وهى التى تثير بمجرد ظهورها مختلف الجهود للقضاء عليها ، وظهور اللاوبا أو

انتشار السكوليرا ، أو هجوم الجراد، كلها مشكلات خطيرة يمكن أن نعتبر سلوك المجتمع فى التغلب عليها مشروعا من المشروعات التى توصى بها طريقة المشروع . ولذلك لانعترف طريقة المشروع بتعلمنا الحالى ، ولا بنظمنا المدرسية المنطقية . لا تعترف بالمناهج ولا الحصص ، ولا بالفصل أو الجرس ، ولا بالانتقال من سنة إلى أخرى ، أى لا تعترف بالامتحان . ذلك لأنها طريقة تتمشى مع الميول النفسية للطفل ، وتتدرج معه وتنمو بنموه . يسأل فتجيبه ، ويتعلم فتساعده وتعينه ... يتم ذلك كله أثناء سير المشروعات التى يقوم بها والتى يأخذ بعضها برقاب بعض . ولكى يكون المشروع مشروعا بمعنى الكلمة يجب أن يلاحظ فى تطبيقه ما يأتى : —

١ — أن تكون المشكلة من وحى الطالب أو الطلاب، وأن يتم تحديدها على أيديهم ، ومن وحى شعورهم

٢ — أن يظل موقف التعلم خلاله تلقائيا

٣ — أن يستمر ما دامت المشكلة مستعصية على الحل أى أن المدة التى يستغرقها المشروع يجب أن لا تحدد إلا بانتهاء المشروع نفسه

٤ — أن يظل الهدف الأسامى من المشروع واضحا أمام المتعلم ، ولا يتيسر ذلك إلا بالمحافظة على سر المشروع من كثرة التشعب الذى قد يؤدى إلى تشتيت الجهود وتلاشى الغرض الرئيسى منه

٥ — أن يعتمد فى سيره على التجارب العملية التى ستتعدد وتتنوع بحسب ما يتطلبه المشروع نفسه ، وأن تتجه كلها فى النهاية نحو تحقيق الهدف الأخير

٦ — أن يصبح الهدف بمجرد الوصول إليه وسيلة فعالة بدوره فى تحقيق أغراض أخرى وفى إثارة دشا كل جديدة بحيث يضمن استمرار العمل واستمرار النمو

وتمتاز طريقة المشروع بمزايا عديدة أخرى . فاعتمادها على المشكلة يجعل سلوك المتعلمين نحوها سلوكا غريزيا له كل مظاهر السلوك الغريزى من حيوية وتغير وتلقائية واستمرار . حتى يتحقق الغرض . وبذلك تضمن نمو المتعلم واستمرار انتباهه التلقائى ، وهو ما لا نجده مطلقا فى الطريقة المنطقية التى ينأى المتعلم فيها عن التعليم ولا يقبل عليه إلا مضطرا وتحت ضغط ظروف خارجية . والمشكلة إذا اعترضت المظهر الفزوعى لشعور الإنسان حفزته ، ولذلك نلاحظ كيف يكون نزوع المتعلمين نحو التعلم فى طريقة المشروع قويا وواضحا ومرغوبا فيه . ويلاحظ أن طريقة المشروع تكسب المادة التى يتعلمها التلميذ قيمة وحيوية لأهميتها بالنسبة إليه؛ بينما لا تكتسب المادة أى معنى فى الطريقة المنطقية . ويتلقى التلميذ فى طريقة المشروع المعلومات كوحدة كلية غير مجزأة ؛ يتعلم المعلومات كما هى فى الحقيقة وفى الحياة . وبذلك تتفادى أكبر عيوب الطرق المنطقية التى قسمت المعلومات إلى علوم من تاريخ إلى كيمياء الخ . . فأصبح الطالب بسبب ذلك عاجزا عن الربط بين ما يتعلمه سواء فى المادة الواحدة أو بينها وبين غيرها من المواد

وتتناول طريقة المشروع عيوب التعليم الحالية فتنقذ الطالب من تحكم المناهج وكثرة المواد وتحكم المدرسين ومن شبح الامتحان وما يتبعه من رسوب وفشل كفيل بقتل روح البحث العلمى فى التلميذ ، وهى تضمن نمو المتعلم باستمرار ونمو المعلم أيضا

إن طريقة المشروع أكبر حدث تربوى خطير ظهر فى العصر الحالى . وواجبنا نحن المصريين بوجه خاص والشرقيين بوجه عام التخلص من الطريقة القديمة المنطقية التقليدية التى نسير عليها ، وأن ننقذ أبناءنا ومجتمعنا وأوطاننا بأن نؤدى لها أكبر الخدمات وأجلها حين ندخل فى التربية طريقة المشروع أو ما يشبهها وينبنى على أساسها؛ فبذلك وحده يظهر جيل حر فى تفكيره ، عملى فى حياته ؛ جيل ينمو باستمرار ويتمشى مع ركب الحياة . جيل يخلع رداء الجمود ويتحرر مما يعوقه من قيود . وبمثل هذا الجيل يتسنى لنا مسايرة الزمن ومنافسة الغربيين ؛ كيف لا وقد أعدته رسالة التربية كما يجب أن تكون

كمال السيد درويش

٢٤ . ٣٧